

رحلة المشرق في القرن السابع الهجري ياقوت الحموي (ت:626هـ) وزكريا القزويني(ت:600) أنموذجاً

أ.م.د. عكرمة كامل محمد

علي حميد مناتي

Dr.akrama.kamel@Uomustansiriyah.edu.iq ali.manty95@gmail.com

الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، قسم التاريخ

الملخص

تضمن موضوع البحث الموسوم بـ (رحلة المشرق في القرن السابع الهجري ياقوت الحموي (ت:626هـ) وزكريا القزويني (ت:600) أنموذجاً) مبحثين الأول تناول الرحالة ياقوت الحموي (574/626هـ) وما عاناه في مراحل حياته الأولى حيث عانى الأسر والفقر فكان ينسخ الكتب بالأجرة ثم اخذ يتجر بها ثم ارتحل رحلة طويلة ساهمت في تعدد روافد ثقافته وتنوعها حيث اطلع على الكتب الثقافية السائدة في مكتبات المدن التي مر بها ولقائه بالعلماء واهل الفضل مما ساهم في ارفاده المكتبة العربية بمؤلفات عدة في مجالات مختلفة من ابرزها كتابه (معجم البلدان) الذي يعد القاموس الجغرافي الأشهر والذي تضمن رحلاته الى المدن والبلدان واخبارها اما المبحث الثاني فقد تطرق الى الجغرافي الفلكي زكريا القزويني (600هـ/682هـ) وهو واحد من ابرز الرحالة والجغرافيين في القرن السابع الهجري ارتحل وساح في بلاد العالم الإسلامي وقرأ ما سجل الرحالة عن رحلاتهم مما افاده كثيراً في وضع كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) وهو في هذا الكتاب يهتم باحوال البلاد والسكان بأسلوب جمع بين البساطة والتنوع حاملاً سمة الطابع الديني.

الكلمات المفتاحية : ياقوت الحموي، معجم البلدان، زكريا القزويني، آثار البلاد واخبار العباد

Historical Writing in the Books of Eastern Travelers in the 7th Hijri Century

Ali Hameed Mnaty Asst. Prof. Ikramah Kamil Mohammed (Ph.D.)

Mustansiriyah University , College of Education, Department of History

Abstract

The research topic titled "(Historical Writing in the Books of Eastern Travelers in the 7th Hijri Century)" consists of two sections. The first section addresses the traveler Yaqut al Hamawi (574 AH / 626 AH) and the hardships he faced in his early life, including captivity and poverty. He used to copy books for a fee and then started trading them. His extensive travels contributed to the diversity of his cultural knowledge as he accessed cultural books in the libraries of the cities he passed through and met with scholars and notable figures. This greatly enriched the Arabic library with numerous works in various fields, most notably his book "Mu'jam al-Buldan," the most famous geographical dictionary, which included accounts of his journeys to different cities and regions, as well as their histories. The second section discusses the astronomer-geographer Zakariya al-Qazwini (600 AH / 682 AH), one of the most prominent travelers and geographers of the 7th Hijri century. He traveled extensively across the Islamic world and read what other travelers had documented about their journeys, which greatly aided him in writing his book "Athar al Bilad wa Akhbar al-Ibad" (Monuments of Countries and Stories of Peoples). In this book, he focused on the conditions of the lands and their inhabitants, combining simplicity and diversity, while maintaining a religious tone.

Keywords: Yaqut al-Hamawi, Mu'jam al-Buldan, Zakariya al-Qazwini, Athar al-Bilad wa Akhbar al-Ibad

المقدمة

مما لا شك فيه ان الرحالة قد نقلوا صورة حية متكاملة الجوانب لكل ما شاهدوه او سمعوه . فقد جاب كلا الرحالين (الحموي والقزويني) العالم الإسلامي وما جاوره ونقلوا تلك الصورة التي تتم عن ثقافة متعددة الروافد ودقة ملاحظة. فقد استشرع ياقوت الحموي افتقار العالم الى كتاب مضبوطاً بالاتفاق وتصحيح الالفاظ واعتبر التصدي لهذا الامر واجب فجاء كتابه معجم البلدان بابهي حلّه متضمناً أسماء البلدان والمدن وما حوت فكان بحق كما قال عنه العالم الإيطالي الدوميلي بانه: (اعظم كتب الجغرافيا التي ظهرت في القرنين الثاني عشر الثالث عشر الميلاديين) واما كتاب القزويني (اثار البلاد واخبار العباد) الذي قسمه الى سبعة أقاليم تكلم في كل إقليم عن بلادانه مرتباً لها على حروف المعجم ويضم ذكر البلدان الإسلامية والأوربية متناولاً جميع جوانبها الطبيعية والاقتصادية والبشرية وعجائبها وغرائبها وكان في حديثه عن العجائب بعض المبالغات مما يجعل بعضها اقرب الى الخرافة وسمي هذا الاتجاه بالاتجاه العجائبي حيث يمثل بداية أنحدار الجغرافيا العربية وتغلب الأسطورة فيها على العلم والتركيز على الظواهر الغريبة التي تخرج عن حدود العلم والمنطق.

المبحث الأول

ياقوت الحموي (574-626هـ/1178-1229م)

هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، مؤرخ موثق وأحد كبار الجغرافيين والعلماء في اللغة والأدب. أصله من بلاد الروم (الزركلي، 2002، صفحة 131). تم أسره في صغره وأُخذ إلى بغداد حيث اشتراه تاجر يُدعى عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، وأدخله إلى الكتاب ليتعلم ويكون مفيداً له في إدارة تجارته (ابن خلكان، د.ت، صفحة 127). علّمه وربّاه، ثم كلّفه بالقيام برحلات تجارية طويلة. انفصل ياقوت عن مولاه في عام 591هـ-1194م، وبعدها كان يعتمد على نسخ الكتب مقابل أجر بسبب فقره الشديد، ثم بدأ في التجارة مع استمرار نشاطه في التأليف (الزركلي، 2002، صفحة 131). قام برحلات عديدة حتى وصل إلى مرو في خراسان، حيث أقام وتاجر هناك. لاحقاً انتقل إلى خوارزم، ولكن عندما غزا التتار المنطقة في عام 616هـ، اضطر للهروب وترك ممتلكاته، واستقر في الموصل حيث عانى من قلة الموارد، ثم انتقل إلى حلب وأقام في خان قرب المدينة حتى وفاته (الزركلي، 2002، صفحة 131).

تعددت روافد ثقافته وتنوعت وبدأت بالمكتب الذي ادخله اليه سيده ثم توسعت بفضل مهنة النسخ التي عمل بها مما أتاح له الاطلاع على الكتب الثقافية السائدة والاطلاع على مكتبات مرو عندما كان مقيماً فيها كما كان لرحلاته العلمية والتجارية أثر كبير في تنوع ثقافته لم يخل عمله في التجارة بينه وبين طلب العلم والمعرفة فكانت هذه الرغبة تدفعه للقاء علماء وشيوخ البلدان التي يذهب اليها وكان سؤاله دون فتور مصدراً من مصادر المعرفة لديه (ابو ليل، 2011، الصفحات 20-21) كما ذكر ياقوت في معجم البلدان انه التقى في جزيرة كيش (قيس) (جماعة من اهل الادب والفقه والفضل وكان بها رجل صنف كتاباً جليلاً فيما اتفق لفظه وافترق معناه ضخم رايته بخطه في مجلدين ضخمين) (الحموي، 1995، صفحة 422) عن ميوله الدينية يذكر القفطي في كتابه (انباه الرواة على انباه النحاة) (كان شديد الانحراف عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) يرتكب في امره ما لا يرتكب احد من مصنفي الفرق حتى كانه قد طالع شيئاً من مذهب الخوارج⁽¹⁾ فاشتبك في راسه منه ما لم يزل، ولما دخل دمشق قعد في بعض أسواقها يناظر بعض من يتعصب لعلي (عليه السلام) وجرى بينهما كلام ادى الى ذكره علياً بما لم يسغ جارياً على عادته فثار الناس عليه ثورة كادوا ان يقتلوه لما سمعوه منه وقدر له السلامة فخرج عن دمشق منهزماً (القفطي، 1986، صفحة 82).

ارقد الحموي المكتبة العربية بمؤلفات في المجالات الثقافية المتنوعة حيث الف في النحو والادب والنسب والتاريخ والملل والنحل والشعر والجغرافيا (ابو ليل، 2011، الصفحات 41-42-43-44). حيث وصفه الذهبي (748هـ) بقوله (صاحب التصانيف الأدبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك (الذهبي، د.ت، صفحة 198)) ويعتبر كتابه معجم البلدان من اهم الكتب في مجال الجغرافيا حيث يصفه المنذري (انه جمع كتاباً كبيراً في البلدان احسن فيه) (المنذري، 1981، صفحة 249) ويذكر ياقوت ان فكرة تأليف المعجم قدحت في ذهنه في مرو الشاهجان عندما كان يحضر مجلس شيخه ابي المظفر السمعاني في سنة 615 هـ فسئل عن

الخوارج: أول الفرق المبتدعة ظهوراً، إذ سمو بهذا الاسم لخروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الحكمين (الرميان، 1427، صفحته 336) ⁽¹⁾

سوق من أسواق العرب في الجاهلية قد ورد ذكره في الحديث النبوي الشريف يدعى (خباشة) فلفظها ياقوت بضم الحاء غير ان احد الحاضرين اعترضه ولم يقتنع انها بالضم وزعم انها بفتح الحاء دون ان يؤيد قوله بشاهد فاخذ ياقوت يبحث في المصادر عن ضبط هذه الحركة وعلى كثرة مكنتات مرو الا انه لم يعثر على ما يدعم رايه فقال: (فالقي حينئذ في روعي افتقار العالم الى كتاب في هذا الشأن مضبوط بالاتفاق وتصحيح الالفاظ بالتقييد مخطوطا). (الحموي، 1995، صفحة 10)

وعن دوافع تأليف كتابه "معجم البلدان"، يذكر ياقوت الحموي بوضوح أنه لم يقم بتأليفه رغبة في التسلية أو للهو، ولم يكن مدفوعاً برغبة مادية أو خوف، ولم يكن الحنين إلى وطنه هو ما أثار رغبته في تأليف الكتاب، ولا كان شوقه إلى أحد الأصدقاء أو الأصدقاء هو ما حفزه. بل على العكس، شعر الحموي أن التصدي لهذا العمل كان واجباً ومسؤولية، وأنه مع امتلاكه القدرة والمعرفة، بات من الضروري أن يقوم بهذا العمل. واستلهم الحموي هذا الواجب من القرآن الكريم، مستشهداً بالآية التي توضح أهمية التأمل والسير في الأرض لاكتساب العلم والفهم. إذ يقول في كتابه: "هذا كتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والانداد والأوثان لم أقصد بتأليفه لهواً ولا لعباً، ولا رغبة حثتني إليه، ولا رهبا، ولا حنيناً استغزني إلى الوطن، ولا طرباً حفزني إلى ذي ود وسكن. ولكن رأيت التصدي له واجباً والانتداب مع القدرة فرضاً لازماً، وفقني عليه الكتاب العزيز الكريم وهداني إليه النبأ العظيم(الحموي، 1995، صفحة 7) وهو قوله عز وجل: (أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (سورة الحج: 46).

لعل من الصعب رسم خارطة لرحلات الحموي وفقاً لتتابعه الزمني إذ ان هناك اختلافاً بين ما دونه ياقوت وما ذكرته المصادر التي ترجمت له (الحموي، 1995، صفحة 422) فكان يتكرر الى كيش (الحموي، 1995، صفحة 422) وقد وصفها قائلاً (هي جزيرة كيش في بحر عمان وهي مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وهي مرفأً مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر رايته مرارا وشربهم من ابار فيها ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات ولملكها هيبه وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه وفيها مغاص على اللؤلؤ (الحموي، 1995، صفحة 422) زار ياقوت مدن وقرى خراسان وأذربيجان منها رحلته الى مدينة هراة حيث لم يخفي اعجابه بها قائلاً انها (مدينة اجل ولا اعظم ولا افخم ولا احسن ولا اكثر اهلا منها مملوءة باهل الفضل والثراء وقد أصابها عين الزمان ونكبتها طوارق الحداث وجاءها الكفار من الشر فخربوها حتى ادخلوها في خبر كان) (الحموي، 1995، صفحة 396).

ثم زار مدينة تبريز وهي اشهر مدن اذربيجان حيث وصفها (مدينة عامرة حسنة ، البساتين محيطة بها والفواكه رخيصة ولم ار فيما رايت اطيب من شمشها المسمى الموصول وشريته بها في سنة 610هـ كل ثمانية امانان بالبغدادي نصف حبة ذهب) (الحموي، 1995، صفحة 13) كما يحدثنا عن صناعة الثياب وتصديرها في هذه المدينة قائلاً: (يعمل فيه الثياب العبائي والسقلاطون² والخطائي والاطلس والنسج ما يحمل الى سائر البلاد شرقا وغربا) (الحموي، 1995، صفحة 13) ومن المدن التي زارها مدينة مرو وهي اشهر مدن خراسان (الحموي، 1995، صفحة 112) وقد روي عن بريده بن الحبيب احد أصحاب النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) انه قال : قال لي رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) : (يا بريده انه سيبعث من بعدي بعوث فاذا بعثت فكن في بعث المشرق ثم كن في بعث خراسان ثم كن في بعث ارض يقال لها مرو اذا رايتها فانزل مدينتها فانه بناها ذو القرنين وصلى بها عزيز) فقدمها بريده غازيا واقام بها الى ان مات وقبره الى الان معروف (الحموي، 1995، صفحة 113).

وقد طاب له المكوث بمرو واعجبه البقاء بها حيث يقول (اقمت بها ثلاثة أعوام ولولا ما عرا من ورود النتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة الكتب) (الحموي، 1995، صفحة 114) كما يذكر خزائنها العامرة بالكتب الجيدة والنفيضة قائلاً: (كثرة كتب الأصول المتقنة بها فاني فارقتها وفيه عشر خزائن للوقوف لم ار في الدنيا مثلاً كثرة وجوده). (الحموي، 1995، صفحة 114)

وفي سنة 616هـ ارتحل الى خوارزم واكثر ما لفت انتباهه فيها كثرة عمارتها حيث قال : (ما رايت ولاية قط اعمر منها ، فانها على ما هي عليه من رداء ارضها وكونها سبخة كثرة النزوز متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور في صحاريها ، قل ما يقع نظرك على رسائيقها على موضع لا عمارة فيه) (الحموي، 1995، صفحة 396).

(²) السقلاطون: والسقلاطون نوع من الملابس الحريرية الفاخرة الملونة بالألوان القرمزية(ابراهيم، 2002، ص237)

ويذكر أيضا أوضاعهم وطرق معيشتهم قائلا: (ما ضننت ان في الدنيا سعتها سعة خوارزم واكثر من أهلها مع انهم قد مروا على ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير واكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق ودكاكين وفي النادر ان يكون قرية لا سوق فيها مع امن شامل وطمانينة تامة (الحموي، 1995، صفحة 396).

ويصف ياقوت الحموي أهل خوارزم قائلا: "الغالب على أهلها الطول والضخامة، وأصواتهم تشبه أصوات الزراير، ولديهم رؤوس عريضة وجباه واسعة (الحموي، 1995، صفحة 396). وقد واجه صعوبة في الكتابة أثناء إقامته في خوارزم بسبب برودة الجو، حيث قال: "اجتهدت في الكتابة، لكنني لم أستطع بسبب جمود الدواة، حتى اضطررت إلى تقريبها من النار لإذابتها. وعندما وضعت الشربة على شفتي، التصقت بها نتيجة لتجمدها" (الحموي، 1995، صفحة 398). وخلال وجوده في خوارزم، حدث غزو التتار عام 616هـ، فاضطر إلى الفرار تاركاً خلفه ممتلكاته، ونزل في الموصل (الزركلي، 2002، صفحة 131). يصف الحموي الموصل بأنها "مدينة عظيمة ومشهورة، تعتبر من أهم قواعد بلاد الإسلام. تتميز بحجمها الكبير وسعة رقعتها وكثرة سكانها، وهي مركز رئيسي يرتحل إليه الناس، ومنها يتوجهون إلى جميع البلدان. فهي بوابة العراق ومفتاح خراسان، ومن خلالها يمكن التوجه إلى أذربيجان (الحموي، 1995، صفحة 223).

ثم رحل إلى حلب (الزركلي، 2002، صفحة 131) واصفا إياها: (مدينة عظيمة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الاديم والماء) (الحموي، 1995، صفحة 282). ويتطرق الحموي إلى أهم المنتجات الزراعية في حلب ومصادرها من المياه قائلا: (فمن ذلك يزرع في ارضها القطن والسمن والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والشمش والتين والتفاح عذبا لا يسقى الا بماء المطر) (الحموي، 1995، صفحة 284) كما يورد لنا الحموي بعض من مشاهداته للاماكن الدينية في حلب حيث يقول: (وقلعة حلب مقام إبراهيم الخليل وفيه صندوق به قطعة من راس يحيى بن زكريا (عليه السلام) وعند باب الجنان مشهد علي بن ابي طالب (عليه السلام) وداخل باب العراق مسجد غوث فيه حجر زعموا انه خط علي بن ابي طالب وفي غربي البلد في سفح جبل جوشن³ قبر المحسن بن الحسين يزعمون انه سقط لما جيء بالسبي من العراق ليحمل الى دمشق او طفل كان معهم في حلب فدفن هناك وفي قبلي الجبل جبانة واحدة يسمونها المقام بها مقام لابراهيم (عليه السلام) وبظاهر باب اليهود حجر على الطريق ينذر له ويصيب ماء الورد والطيب ويشترك المسلمون واليهود والنصارى في زيارته (الحموي، 1995، صفحة 284).

ويذكر لنا ياقوت أبواب حلب السبعة قائلا: (ولها في أيامنا سبعة أبواب باب الأربعين، وباب اليهود، وباب الجنان، وباب انطاكية وباب قنسرين وباب العراق وباب السر) (الحموي، 1995، صفحة 286) وكانت اقامته بالخان ظاهر حلب فمرض ومات به في العشرين من رمضان من سنة 626هـ (القفطي، 1986، صفحة 83).

اما عن نهجه في معجمه فيقول الحموي: (فاستخرت الله تعالى: وجمعت ما شئتوه واضفت اليه ما املهوه ورتبته على حروف المعجم ووضعت وضع اللغة المحكم وابنت عن كل حرف من الاسم وهل هو ساكن او مفتوح او مضموم او مكسر ثم اذكر اشتقاقه ان كان عربيا ومعناه ان أحطت به علما ان كان عجميا وفي أي إقليم ومن بناء واي بلد من المشهورات يجاوره كم المسافة بينه وبين ما يقاربه وبماذا اختص من الخصائص وما ذكر فيه من العجائب وبعض من دفن فيه من الاعيان والصالحين والصحابه واستقصيت تلك الفوائد جلها او كلها حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تابها العقول وتتفر عنها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة وانا مرتاب بها نافر عنها متبري الى قارئها من صحتها لانني كتبتها حرصا على الفوائد فاما من يروي ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهد على من رواه عنه (محمدين، 1999، الصفحات 184-185).

(2) جَوْشَن: جبل مطلق على حلب في غربها، في سفحه مقابر ومشاهد للشيعية (الحموي، 1995، صفحة 18)

المبحث الثاني

القزويني (600هـ - 682هـ) (1203م - 1283م)

هو جمال الدين أبو يحيى (خصباك، في الجغرافيا العربية، د.ت، صفحة 123) زكريا بن محمد بن محمود من سلالة انس بن مالك الانصاري النجاري (القزويني ز.، د.ت، صفحة 5) ولد بقزوين بين رشت وطهران (الزركلي، د.ت، صفحة 46) وهو ينحدر من أسرة عربية استوطنت إيران منذ عهد طويل (خصباك، د.ت، صفحة 292) ومن الملاحظ أن لغته يكثر بها الغريب ولا ترتفع إلى مصاف اللغة الكلاسيكية مما يمكن أن يستدل منه على أنها لم تكن لغة طفولته (حميدة، 1995، صفحة 503) ولي قضاء واسط والحلة في أيام المستعصم العباسي (640هـ - 656هـ) (الزركلي، 2002، صفحة 46) ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في الحقول العلمية. شغف بالفلك والطبيعة وعلوم الحياة وكانت اعظم اعماله شأناً هي نظرياته في علم الرصد الجوي (ابن فضلان، 2003، صفحة 16) واما عن حياته واساتذته فلا نعرف سوى النزر اليسير ومن ذلك أنه كان بدمشق حوالي (630هـ - 1233م) وهناك وقع تحت تأثير الصوفي الشهير ابن العربي كما ربطته علاقة بالكاتب والاديب الكبير ضياء الدين بن الاثير اخ المؤرخ المشهور ولاشك ان القزويني درس الفقه لانه تولى منصب القضاء (الريامي، 2013، صفحة 82).

وهكذا نرى ان القزويني قد ارتحل وساح في ايران والشام والعراق هذا فضلا عن اتصاله بكثير من الرحالة وقرأته لما سجلوه عن رحلاتهم وسياحاتهم مما افادة كثيرا في كتاب رحلته المعروف باسم (اثر البلاد واخبار العباد) (رمضان، د.ت، صفحة 297). وقد خلف لنا كتابين كبيرين الأول في الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ويسمى عجائب المخلوقات ولا ريب انه أجل ما انتجه في هذا الميدان علماء العصور الوسطى قاطبة ويشتمل هذا الكتاب على بيان التقويم الشمس والنجوم والاجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافية المختلفة (رمضان، د.ت، صفحة 297) والكتاب الثاني (اثر البلاد واخبار العباد) الذي سجل فيه القزويني اخبار رحلاته ورحلات الذين التقى وقرا كتبهم وكذا اخبار من سبقوه من الرحالة على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة ولكنها لا ترتقي إلى المستوى الذي بلغته المعلومات التي أوردها الرحالة الجغرافي ياقوت الحموي اما عن الاخبار الأخرى التي تتصل بأحداث العباد واخبارهم فلا نعتقد ان هناك مصنفا سبقه او عاصره او ضارعه فقد اشتمل الكتاب على كثير من الاخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس (رمضان، د.ت، صفحة 297) الذين اتصل بهم القزويني كالفردوسي وناصر خسرو وعمر الخيام ورشيد الدين (ضيف، 1995، صفحة 155) اللطوطا هذا فضلا عما اشتمل عليه وزخر به من الاخبار الممتعة والمسلية (رمضان، د.ت، صفحة 298). وهو في هذا الكتاب لا يهتم بالمسالك وانما يهتم بأحوال البلاد والسكان. وقد قسم هذا الكتاب الى سبعة أقاليم تكلم في كل إقليم عن بلدانه مرتباً لها على حروف المعجم وهو يضم ذكر البلدان الإسلامية والأوربية ويذكر غرائب عن العالم في أوروبا وإفريقيا وآسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين وفي حديثة عن العجائب بعض المبالغات مما يجعل بعضها أقرب إلى الخرافة وكلما كان الإقليم بعيداً تبادوا في المبالغة (الريامي، 2013، صفحة 83) منها حديثة عن جزيرة النساء حيث ذكر (في بحر الصين جزيرة لا رجل معهن أصلاً وانهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن وقيل انهن يلقحن من ثمرة شجر عندهن ياكلن منها فيلقحن ويلدن نساء) (القزويني، د.ت، ص 33) وبجانب هذه الاقاصيص نجد يقص عن البلاد الإسلامية كثيراً من الحكايات عن الزهاد والصالحين كما يتعرض لكثير من اخبار التاريخ والملوك السابقين ويجمع كتابه خوارق النساك والمتصوفة بجانب خوارق البنیان والآثار. (رمضان، د.ت، صفحة 83)

ويحدثنا القزويني عن وفرة الحديد في زنجان⁴ وكيف يتعاملون به عند حصول الجذب قائلًا: (وفي جبالها معادن الحديد يحمل منها إلى البلاد، وإذا وقع عندهم جذب لا يبيعون الخبز الا مع الحديد فمن أراد شراء الخبز يزن ثمن الخبز والمسامير) (القزويني، د.ت، صفحة 383) وعند وصوله إلى مدينة الأهواز يحدثنا أحوالها وطبائع أهلها وعن مناخها الحار مما ساهم في كثرة الزواحف والحشرات والهوام قائلًا: (ناحية بين البصرة وفارس ويقال لها خوزستان بها عمارات ومياه وأودية كثيرة صيفها لا يفارق الجحيم ومن محنها شدة الحر وكثرة الهوام الطيارة والحشرات القتالة قالوا: ذبابها كالزنبور وطينتها كصوت الطنبور لا ترى بها شيئاً من العلوم والآداب ولا من الصناعات الشريفة وأهلها الام الناس .. وتكثر الافاعي في ارضيها والجرارات من العقارب التي لا ترفع ذنبها كسائر العقارب تجره

(4) زَنْجَانُ: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين (الحموي، 1995، صفحة 152)

ولو كان في العالم شيء شرا من الافاعي والجرارات لما قصرت قصبة الاهواز عن توليده واذا حمل الى الاهواز الطيب تذهب رائحته ولا يبقى منتعنا به) (القزويني، د.ت، صفحته 152)

وفي حديثه عن الهند يحدثنا عن عجائبها وتضاريسها وأهلها قائلا (ارض الهند واسعة كثيرة العجائب وهي اكثر ارض الله جبالا وانهارا وقد اختصت بكريم النبات وعجيب الحيوان ويحمل منها كل طرفة الى سائر البلاد مع ان التجار لا يصلون الا ان اوائلها واما اقصاها فقلما يصل اليها اهل بلادنا لانهم كفار يستبيحون النفس والمال) (القزويني، د.ت، صفحته 127) ويقتبس القزويني مما قاله ابن الاثير الجزري في تحفه العجائب وطرفة الغرائب عن عجائب الهند: (بارض الهند بحيرة مقدارها عشرة فراسخ في مثلها ماؤها ينبع من اسفلها لا ياتيها شيء من الأنهار وفي تلك البحيرة حيوانات على صورة انسان اذا كان الليل يخرج منها عدد كثير يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون باليدين وفيهم جوار حسناوات ويخرج منها أيضا حيوانات على غير صورة الانسان عجيبة الاشكال) (القزويني، د.ت، 129) وعن طقوس اهل الهند يحدثنا القزويني عند مروره ببلدة سومنا (كان من عجائبها صنم اسمه سومناه وكان الصنم واقفا في وسط هذا البيت لا بقائمة من اسفله تدعّمه ولا بعلاقة في اعلاه تمسكه من راء واقفا في الهواء تعجب مسلما كان او كافرا وكانت الهند يحجون اليه كل ليلة وترغم الهند ان الأرواح اذا فارقت الأجساد اجتمعت اليه) (القزويني، د.ت، صفحته 95).

كما ذكر جامع دمشق بانه من عجائب البنين قائلا: (وهو احد العجائب كامل المحاسن جامع الضرائب بسط بالرخام، فصوص اقداره متقنة وصنعتة مؤتلفه وهو منزه عن صور الحيوان، الى صور النبات، ومن عجائب الجامع لو ان أحدا عاش مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى في كل يوم ما لم يره من حسن الصنعة ومبالغة التتميق) كما يصف اهل دمشق بالاخلاق الحسنة وبالميل للهو واللعب فيقول (واهل دمشق احسن الناس خلقا وخلقا وزيا واميلهم الى اللهو ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب) (القزويني، د.ت، الصفحات 189، 190، 191) وعندما يذكر بلاد الأقاليم يذكر الموارد الاقتصادية لتلك البلاد فيتحدث عن موارد كرمان قائلا (وهي بلاد واسعة الخيرات وافرة الغلات من النخل والزرع والمواشي وبها ثمرات الصرود والجروم والجوز والنخل وبها معدن التوتيا يحمل منها الى جميع الدنيا وبها خشب لا تحرقه النار ولو ترك أياما وشجر القطن بكرمان يبقى سنين حتى يصير مثل الأشجار الباسقة وكذلك شجر الباذنجان والشاهسفرم وبارض كرمان جبال بها احجار تشغل بالنار مثل الحطب). (القزويني، د.ت، الصفحه 247، 248)

ويحدثنا القزويني عن جماعة الصوفية⁽⁵⁾ التي بدأت تلعب دورا هاما وخطيرا في المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري فلم يعد دورها محدود بالزهد والتقوى فحسب بل اصبح لها كيانها العقلي والروحي ومن ثم فقد تصدى العلماء والفقهاء بعد ان كثر عددهم واشتهر امرهم فاتهمهم بالكفر وفساد العقيدة بل اعتبروهم خطرا على هذا المجتمع وفي هذا الصدد يقول القزويني: (وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الهجوم والاضطهاد للصوفية ان كونوا لانفسهم جماعات اشبه ما تكون بالاحزاب ولكل فرقة او جماعة مبادئها واصولها وشيخها واتباعها وعلى كل صوفي ان ياتمر باوامر شيخه ومرشده) (رمضان، د.ت، صفحته 303)، وقد تحدث القزويني بصورة كاملة المعالم عن كل بلاد زارها واصفا جميع نواحيها فيصف الصين قائلا: (بلاد واسعة في المشرق عرضها اكثر من طولها وانها كثيرة المياه كثيرة الأشجار وكثيرة الخيرات وافرة الثمرات من احسن بلاد الله وانزهرها وأهلها احسن الناس صورة واحذقهم بالصناعات الدقيقة لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل والكركدن ودينهم عبادة الاوثان وفيهم ما نويه ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت العبادات) (القزويني، د.ت، صفحته 53).

ولكي تكتمل صورة البلاد (الصين) لا يكفي القزويني بوصفه لها بل يقتبس مما قاله ابن الفقيه (بالصين دابة المسك وهي دابة تخرج من الماء في كل سنة في وقت معلوم فيصطاد منها شيء كثير وهي شديدة الشبه بالطباء فتدبح ويؤخذ دم من سرتها وهو المسك ولا رائحة له هناك حتى يحمل الى غيرها من الأماكن) (القزويني، د.ت، صفحته 55)

في مقدمة كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، يروي القزويني كيف جمع ما وقع له من مشاهدات وتجارب. بيديه اللتين لطالما حملتا المخطوطات القديمة، يكتب بنبرة ملؤها التأمل والدهشة، قائلا: "لقد جمعت في هذا الكتاب ما عرفته، وما سمعته وشاهدته من روائع صنع الله تعالى وعجائب حكمته في بلاده وعباده." تلامس قلمه الورق بخفة حين يصف كيف أن الأرض، في ظاهرها جرم بسيط

(5) الصوفية، فرقة من الفرق الضالة، وهم أنواع وأقسام، فبعضهم غلاة وبعضهم أقل من ذلك، لكنهم بالجملة طائفة انحرفوا في باب السلوك إلى الله سبحانه وتعالى، وابتدعوا بدعاً في كيفية التقرب إلى الله عز وجل في الأذكار، وابتدعوا بدعاً في المآلات التي يتوصل الإنسان إليها من خلال العبادة (السلمي، 1432، صفحته 12)

متشابه الأجزاء، لكنها بسبب تأثير الشمس والمطر والرياح، تكشف عن عجائب لا تحصى. تتحرك أصابعه فوق الصفحات حين يوضح كيف أن لكل بقعة خصائصها الفريدة، ففي بعض الأماكن، تتحول الأرض إلى حجر صلد، وفي أماكن أخرى، إلى طين حر أو طينة سبخة. تتوقف يده للحظة، وتعود لتسجل كيف أن من هذا الحجر القاسي تنبت الثمار والزروع بألوان وأشكال متنوعة، وكأن الأرض تستجيب لتلك القوى الخفية التي تجري فيها. يكتب بحذر عن الطينة السبخة، تلك التربة التي تتولد منها الشبوب والزجاجات والأملاح بفوائدها المتعددة، وكأن في كل جزء منها سرا لا يظهر إلا لأولئك الذين يعرفون كيف ينظرون إلى الأرض بعيون مفتوحة على عجب خلق الله (الدفاع، د.ت، الصفحات 185، 186)

يتضح من النص السابق أن القزويني دقيق الملاحظة عميق التفكير، فقد عرض أفكار علمية رائعة عن الأرض وتكوينها وهكذا استطاع القزويني أن يشرح بعض الظواهر الجغرافية بطريقة علمية سهلة تفوق بها على علماء العصر الحديث الذين يستخدمون الآلات والأجهزة العصرية (الدفاع، د.ت، صفحة 185) وقد عاونته ثقافته على أن يفقه كل شيء وفقا لطريقته الخاصة والقزويني ككاتب يتميز بالوضوح بالأسلوب وهو بلا ريب نابغة كمبسط للمعارف يعرض مادته العلمية في كثير من المهارة بحيث لا تنفر القارئ كما أن أسلوبه يجمع بين البساطة والتنوع (كراتشوفسكي، صفحة 360). وكان منهج القزويني بالبحث ممزوجا بطابع الدين فكثيرا ما يستشهد في كلامه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية واشتهر بين معاصريه بالأمانة والصدق في النقل (الدفاع، د.ت، صفحة 185).

الخاتمة

نحمد الله عز وجل على توفيقه في إتمام البحث والخروج بالاستنتاجات التالية:

- 1- تناول البحث روافد الثقافة عند كلا الرحالتين من خلال التطرق لحياتهما وظروف نشأتهما والتي أسهمت في تبلور شخصيتهما .
- 2- تطرق البحث إلى وصف البلدان والمدن التي زارها الرحالتان داخل الدولة الإسلامية أو خارجها كالصين والهند وخوارزم وتحديثا عن أوضاع شعوبها وطرق معيشتهم.
- 3- مصنفا الرحالتين كان لهما دور كبير في إرفاد المكتبة العربية في المجالات الثقافية المتنوعة وعد بعضها مصادر أساسية للمعلومات عن بلاد العرب والدولة الإسلامية والتي اعتمد عليها من جاء بعدهم.
- 4- تعرض البحث إلى بعض الظواهر غير المألوفة والتي ذكرها القزويني والتي يغلب فيها جانب الخرافة على جانب العلم.

المصادر والمراجع

- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس، (ت بعد 310)، (2003)، رحلة بن فضلان إلى بلاد الترك والرووس والصقالية، أبو ظبي: دار السويدي.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم، (ت 681)، (د.ت)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس. بيروت-لبنان، ج3: دار صادر.
- كراتشوفسكي، اغناطوس يوليا نوفتش، (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، تج: إيغور بلياف، (صلاح الدين هشم، المترجمون) الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج1.
- القزويني، زكريا بن محمود الكوفي (ت: 682)، آثار بلاد وإخبار العباد، دار بيروت، 1986
5. جمال الدين أبو الحسن، علي بن يوسف، (ت 624هـ) القفطي، (1986)، أنباء الرواة على أنباء النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة-مصر: دار الفكر العربي.
- خصبأك، (د.ت)، في الجغرافيا العربية.
- الزركلي، خير الدين بن محمود (ت 1396هـ)، (2002)، الاعلام (المجلد 15، ج8)، دار العلم للملايين.
- أبو ليل رقية عبدالله، (2011)، رسالة ماجستير غير منشورة، بإقوت الحموي، شهاب الدين بن عبدالله (ت 626هـ) / 1229م وكتابه معجم البلدان الأوضاع الاقتصادية دراسة تاريخية، نابلس-فلسطين: جامعة النجاح-كلية الدراسات العليا.
- رمضان. (د.ت)، الرحلة والرحالة المسلمون .

- القزويني، زكريا بن محمود الكوفي، (ت682هـ)، (د.ت)، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات. بيروت-لبنان: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.
- المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي. (1981). التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف، ط2. مؤسسة الرسالة.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (د.ت)، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن سيوني زغلول، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت626هـ) (1995)، معجم البلدان، بيروت-لبنان: دار صادر.
- الضيف، شوقي. (1995)، تاريخ الأدب العربي. مصر: دار المعارف.
- حميده، عبد الرحمن، (1995)، اعلام الجغرافيين العرب، دمشق-سوريا: دار الفكر.
- الدفاع، علي عبدالله، (د.ت)، رواد علم الجغرافيا، مكتبة التوبة.
- الريامي، كمال محمد، (2013)، مشاهير الرحالة العرب، كنوز للنشر والتوزيع.
- محمدين محمد محمود، (1999)، التراث الجغرافي الإسلامي، ط3، دار العلوم.

References

- Abu Leil, Ruqayya Abdullah. (2011). *Economic Conditions in Yaqut al-Hamawi's "Mu'jam al-Buldan"* - A Historical Study (Unpublished master's thesis). Nablus, Palestine: An-Najah University, Faculty of Graduate Studies.
- Al-Dhahabi, Shams al-Din Abu Abdallah Muhammad ibn Ahmad ibn Uthman. (n.d.). *Al-Ibar fi Khabar man Ghabar* (Abu Hajar Muhammad al-Said ibn Siyuni Zaghlul, Ed.). Beirut, Lebanon: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
- Al-Dhaif, Shawqi. (1995). *The History of Arabic Literature*. Egypt: Dar al-Ma'arif.
- Al-Difa, Ali Abdullah. (n.d.). *Pioneers of Geographical Science*. Riyadh, Saudi Arabia: Maktabat al-Tawbah.
- Al-Hamawi, Shihab al-Din Abu Abdallah Yaqut ibn Abdallah al-Rumi. (1995). *Mu'jam al-Buldan*. Beirut, Lebanon: Dar Sader.
- Al-Mundhiri, Zaki al-Din Abu Muhammad Abd al-Azim ibn Abd al-Qawi. (1981). *The Supplement to the Obituaries of Transmitters* (Bashar Awwad Maaruf, Ed., 2nd ed.). Beirut: Muassasat al-Risala.
- Al-Qazwini, Zakariya ibn Mahmud al-Kufi. (1986). *Athar Bilad wa-Akhbar al-Ibad*. Beirut: Dar Beirut.
- Al-Qazwini, Zakariya ibn Mahmud al-Kufi. (n.d.). *The Wonders of Creatures and the Marvels of Existing Things*. Beirut, Lebanon: Al-Alami Printing Press.
- Al-Riyami, Kamal Muhammad. (2013). *Famous Arab Travelers*. Cairo, Egypt: Kanz Publishing and Distribution.
- Al-Zarkali, Khair al-Din ibn Mahmud. (2002). *Al-A'lam* (15th ed., Vol. 8). Beirut, Lebanon: Dar al-Ilm Lilmaalayin.
- Hamidah, Abd al-Rahman. (1995). *Notable Arab Geographers*. Damascus, Syria: Dar al-Fikr.
- Ibn Fadlan, Ahmad ibn Fadlan ibn al-Abbas. (2003). *The Journey of Ibn Fadlan to the Lands of the Turks, Rus, and Saqaliba*. Abu Dhabi: Dar Al-Suwaidi.
- Ibn Khallikan, Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim. (n.d.). *Wafayat al-Ayan wa-Anba Abna al-Zaman* (Ehsan Abbas, Ed.). Beirut, Lebanon: Dar Sader, Vol. 3.
- Jamal al-Din Abu al-Hasan, Ali ibn Yusuf al-Qifti. (1986). *Anba al-Ruwat 'ala Anba al-Nuhat* (Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Ed.). Cairo, Egypt: Dar al-Fikr al-Arabi.
- Khasbak. (n.d.). *In Arabic Geography*.
- Kratchkovsky, Ignatius Yulianovich. (n.d.). *The History of Arabic Literature* (Ivor Beliaev, Trans.; Salahuddin Hashem, Translator). Cultural Administration, League of Arab States, Vol. 1.
- Muhammadain, Muhammad Mahmud. (1999). *The Islamic Geographical Heritage* (3rd ed.). Cairo, Egypt: Dar al-Uloom.
- Ramadan. (n.d.). *Travel and Muslim Travelers*.